مركز الرافدين للحوار
Al-Rafidain Center For Dialogue
R.C.D

مقالات RCD

شكل المجال الحيوي لمنطقة غرب آسيا في ظل الهيمنة الأمريكية

أحمد صحن

تنويه

ان كل الاراء الواردة في هذا المقال تعبر عن رأي كاتبها

نبذة عن مركز الرافدين للحوار

يُعَدُّ مركزُ الرافدين للحوار RCD من المراكز النوعية في العراق التي تجمعُ على منبرها النخبَ السياسيةَ والاقتصادية والأكاديمية الناشطة في تداول الافكار البناءة، فهو مركز فكري مستقل (THINK TANK)، يعمل على تَشجِيعِ الحِوارات في الشؤون السِياسِيّةِ والثَقافية والاقتصادية بين النخب كافة؛ لتعزيز التجربة الديمقراطية، وتحقيق السِلْم المجتمعي، ورفد مؤسسات الدولة والمجتمع بالخبرات والرؤى الاستراتيجية؛ ابتغاء تفعيل دورها والارتقاء بأداءها. و يمثل المركز فضاءً حراً يتّسِم بالموضوعية والحياد ويوظف مخرجاته لمساعدة صناع القرار وتوجيه الرأي العام نحو بناء دولة المؤسسات.

تأسس المركز في الاول من شباط (فبراير) 2014 في مدينة النجف الأشرف على شكل مجموعة افتراضية في الفضاء الالكتروني تضم عددا من السياسيين والأكاديميين ورجال الدولة التنفيذيين والقضاة والدبلوماسيين ورجال الدين، وقد تطورت الفكرة لاحقاً، ليتم إكسابها الصفة القانونية عن طريق تسجيل المركز في دائرة المنظمات غير الحكومية NGO التابعة للأمانة العامة لمجلس الوزراء العراقي.

يضم «مركز الرافدين للحوار RCD» اليوم كمشاركين في برامجه وفعالياته ونشاطاته أكثر من خمسة الاف عضو عراقي وعربي واوربي واسيوي من التوجهات السياسية والاختصاصات الأكاديمية كافة، اتفق فيه الجميع على اعتماد الحوار ركيزة أساسية لمواجهة المشكلات، وإنتاج حلول استراتيجية، تتناغم ورؤية المركز في بناء شرق اوسط جديد ومختلف ينطلق من عراقٍ مزدهرٍ. كما يعمل في اروقة المركز وضمن كوادره المتقدمة اكثر من 70 شخصاً فاعلاً ومن مختلف الاختصاصات قد توزعوا ما بين مجلس الادارة وهيأة المستشارين والباحثين وزملاء المركز والكادر الاداري فهم يتنافسون فيما بينهم من اجل تقديم النتاجات العلمية والثقافية والرؤى السياسية والاجتماعية والاقتصادية الرصينة التي تخدم الوطن والمواطن.

لم يكتفِ المركز بالتواصل الالكتروني، بل أقام مجموعة من النشاطات على أرض الواقع شملت عدداً من الندوات والمؤتمرات وورش العمل والجلسات الحوارية التخصصية والملتقيات السنوية وفي مجالات متعددة، كما عمد المركز الى الاهتمام بالنتاجات العلمية والثقافية والسياسية والاقتصادية التي تصدر في قارتي اوربا واسيا حاملاً على عاتقه ترجمتها الى اللغة العربية للاستفادة منها، فضلاً عن طباعة الكتب المؤلفة ذات الصلة بالواقع السياسي والثقافي والاقتصادي والامني، كما شرع بنشر سلسلة الاطاريح والرسائل الجامعية التي تعنى بالأمور التي تخدم الصالح العام فقد تمت طباعة مجموعة منها، كما اعد المركز مجموعة من استطلاعات الرأي الميدانية الى غير ذلك فضلاً عن اصداره مجلةً علمية محكمة تضم بين طياتها مجموعة من الابحاث والمقالات العلمية والثقافية تحت مسمى مجلة (رواقات).

فيما يعد ملتقى الرافدين (RCD-FOURM) معلماً بارزاً ضمن انشطة المركز والذي يعد الاول من نوعه في العراق، والاكثر سعةً وتنظيماً، ويهدف الى اثراء الحوار بين صناع القرار والخبراء في القضايا التي تهم البلد والشرق الاوسط، وتعزيز النقاشات بشأنها، وتبادل الخبرات وابرام الاتفاقيات ومذكرات التفاهم وآليات التعاون.

مقالات RCD

شكل المجال الحيوي لمنطقة غرب آسيا في ظل الهيمنة الأمريكية

أحمد صحن

كان الفراغ في فرضيات الفيزياء التقليدية يمثّل وجودًا ماديًا شبحيًا باهتًا، وإن تأثيره يكاد يساوي صفرًا، أو يقترب من درجة العدم لطبيعة بنيته. فالفراغ، على هذا النحو، وجودٌ مادي في أوطأ حالات الطاقة. وإن الواقع يشير إلى أن ما يبدو فراغًا إنما هو في الحقيقة مجال جاذب لقوى مادية متعددة كثيفة. فالقوى الكثيفة المتجاذبة حول ما يُطلق عليه (مجازًا) فراغًا، تتجاذب بتأثير من الطاقة الواطئة فيه؛ طاقة تدفع القوى المتعددة نحو إحداث مزيد من الفاعلية لتشكيل الفراغ أو المجال، بعبارة أدق. هذا المنطق، وإن كان ذا طابع مختبري خالص، سيبدو أكثر تعقيدًا عند مقاربته بحقل العلاقات الدولية ونظام الهيمنة على مجالات النفوذ العالمية، وتحديدًا عند مقاربته بحقل الجيوبوليتيك المتعلّق بوصف المجالات الحيوية المرسومة على رقع جغرافية هنا وهناك.

أقول ذلك، والموضوع له علاقة باستراتيجية الولايات المتحدة الحالية في غرب آسيا، وعزمها تحطيم النظام السياسي الإيراني في أخطر مجالات النفوذ العالمية. ففي حال تحقّق التغيير المفترض لدولة "الولي الفقيه"، فإننا، وبناءً على ما تقدّم، لن نكون أمام فراغ سياسي محايد قابل للاحتواء من قبل القوى الكبرى بسهولة، بل أمام لحظة جذب كونية كبرى تعيد تشكيل المنطقة بأسرها. فالفراغ السياسي، طبقًا للوصف أعلاه، لا يعمل بوصفه خلاءً سديميًا، بالتعبير الأرسطي، بل امتلاءً كامنًا؛ أي إنه مجالٌ جاذب يستدعي قوى إقليمية ودولية تتصارع عليه، كلٌّ حسب مصالحه وهواجسه. وعلى هذا، فإن إيران المحطَّمة لن تتحوّل إلى مجرد مجال مكشوف لوحدات سياسية ضعيفة وفق هذا المعنى التبسيطي، بل إلى بؤرة جذب لقوى كبرى لأجل استملاك النفوذ، ولن تنفرج صراعاتها بسهولة. في منطقة شهدت، من قبل، صخبًا سياسيًا واعتلالات بنيوية وعطلًا في إدارة الأزمات، لكن ذلك كان يتم برعاية دولية. فعندما يصبح الفراغ ذاته موضوعًا للصراع بين الدول الكبرى نفسها، وليس نقيضه، عندئذ سنكون أمام معضلة انهيار نظام سياسي مركزي.

منذ أكثر من أربعة عقود، ونظام الحكم في إيران يعيش تحت تأثير الضغط الأميركي شبه الدائم، بمشاركة الكيان الصهيوني، وبأدوات متعددة تراوحت بين العقوبات الاقتصادية الخانقة، والعمليات الاستخبارية، والاغتيالات، والمقاطعة السياسية. ومع ذلك، لا يزال النظام قائمًا، ولكن على نحو غير مستقر. فالسؤال الجوهري الذي يُطرح اليوم ليس: "كيف سيسقط النظام في إيران؟"، بل: "متى سيسقط؟".

صحيح أن النظام الإيراني برع في قدرته على الصمود خلال العقود الماضية، لكنه يصارع كليًا لأجل البقاء الآن، بعد أن أنهكته ضراوة الضربات. وهذه ليست ملاحظة شكلية، بل وصف لما آلت إليه بنية

حكم بلغت أقصى ما يمكنها تقديمه؛ تعرية السياسة الأميركية بعدّها صلفًا ومروقًا لا أخلاقيًا. إذ مع تعاظم هذا النوع المتصاعد من الهيمنة، ليس أمام النظام سوى تدعيم خطابه الأخلاقي المقاوم، ولم يعد أمامه من شيء سوى فعل ذلك.

منذ اندلاع الثورة الإيرانية، لم تكن الولايات المتحدة والكيان الصهيوني خصمين عابرين في السياسة الخارجية لإيران، بل كانتا ركيزتين دعمتا الخطاب الأيديولوجي التأسيسي لولاية الفقيه. إذ أسهمت الضغوط الأميركية والغربية في تشكيل وتثبيت هذا الخطاب، فتحولت العقوبات الاقتصادية المفروضة عليه من أداة ضغط لإزالته إلى شرط من شروط استدامته. ولأجل ذلك كان يُدار الوضع الداخلي في إيران عبر إعادة إنتاج ما يجري من مواجهات، بتحويله إلى معنى من معاني القهر والمظلومية التي عُرف بها تراث إيران الشيعي.

بهذا المعنى، فإن كل أزمة خارجية كانت تُستثمر لتأجيل الأسئلة الداخلية (الفقر، البطالة، تآكل الطبقة الوسطى، انسداد الأفق السياسي، وغياب أي عقد اجتماعي حقيقي، وانعدام أي استراتيجية في العلاقات الخارجية). وإزاء ذلك، استمر هذا النظام يوظف الشعارات ذاتها التي كان يوظفها في بواكير الثورة، عندما كان ينعت الولايات المتحدة بالشيطان الأكبر، ولم ينتهِ من ذلك الوصف، بل زاده بضرورة التغيير الأكبر. وهكذا، لم يعد النظام بحاجة إلى إقناع المجتمع الإيراني بمن هي أميركا؟ لكنه كان يواجه، عوضًا عن ذلك، مشكلة السيطرة على الداخل الإيراني بضرورة تلبية الحاجات المعاشية للناس، فشرعية النظام، مهما تكن، لا تصمد أمام مشكلات الفاقة والعوز. فقد يكون النظام قادرًا على امتصاص الصدمات، لكنه ليس بمقدوره تأمين الرضى الشعبي الحقيقي للناس. يرى القابضون على الحكم أن الثورة الإيرانية وُجدت لتطبق قناعاتها، لا لتُقنع الناس بها؛ وُلدت لتستمر وتطور مقولاتها.

ومع ذلك، في تعامله مع الولايات المتحدة، استمر النظام الإيراني يواجه سياسات الاستنزاف بأسلوب دفاعي، بدلًا من مواجهتها بصور مباشرة، باعتبار أن واشنطن، وإلى وقت قريب، لم تتخذ قرار إسقاط النظام، إنما كانت تسعى إلى احتوائه وإدارته. غير أن التحول الذي طرأ على العقيدة الأمنية للكيان الصهيوني نحو منع إيران من أن تصبح قوة نووية مكتملة، أدخل الصراع مرحلة أكثر خطورة، فتبلور، في أذهان الإسرائيليين، الرهان على تحطيم معادلة غير مستقرة: نظام محاصر لكنه غير قابل للاستبدال، وعداء مفتوح بلا حسم.

الكيان الصهيوني لم يسعَ إلى إسقاط النظام بقدر ما سعى إلى إنهاكه: ضرب البرنامج النووي، اختراق المنظومة الاستخبارية، تنفيذ عمليات نوعية محسوبة لا تؤدي إلى حرب شاملة. هذا النوع من

الضغط لم يكن ليستهدف إسقاط الأنظمة عادة، لكنه يسرّع في تآكلها من الداخل. ولكن تصاعد حدة الاحتجاجات التي اندلعت مطلع هذا العام، واتساع رقعتها، أظهر تحولًا ملحوظًا في المواقف الأميركية والإسرائيلية، ومعهما أطراف أوروبية وازنة، حيث بات الحديث عن إسقاط النظام يُقال علنًا، لا همسًا، وأصبحت الضربة العسكرية احتمالًا مطروحًا، لا مجرد ورقة ضغط، لذلك لم يعد التدخل الخارجي وحده هو ما يشكّل خطرًا على النظام، بل بات الانفجار الشعبي الاحتجاجي الواسع في الداخل عامل التهديد الأبرز، ولا سيما في ضوء ما لوّح به الرئيس الأميركي من إمكانية دعم هذا الحراك إذا ما لجأ النظام إلى ممارسة العنف ضده. فالتاريخ السياسي للأنظمة العقائدية واضح بأنها لا تسقط بالعقوبات وحدها، ولا بالاحتجاجات وحدها، ولا حتى بضربة عسكرية في العمق الإيراني، بل حين تعجز السلطة في إيران عن تحويل التهديد الخارجي إلى شرعية داخلية، ويتحوّل "العدو الخارجي" من موضوع للتعبئة العقائدية إلى عبء سياسي تضليلي، فيبدأ الانهيار من الداخل.

لماذا نقول ذلك؟ لأن التدخل العسكري المباشر قد يمنح النظام فرصة نجاة إضافية. فالحروب توحّد الشعوب الممزقة (ولا ألمّح إلى أن الشعب الإيراني شعب ممزق إطلاقًا)، لكن الحروب تعيد ترتيب الأولويات لصالح النظام على حساب التغيير الذي تطمح إليه أميركا. لذلك، فإن إسقاط النظام في إيران من الخارج ليس فقط مهمة معقّدة، بل قد يكون ذا نتائج عكسية تمنحه عمرًا افتراضيًا أطول. حتى الآن، يبدو نظام الحكم في إيران قادرًا على الصمود، لكنه عاجز عن تجاوز مرحلة الصمود نفسها. إنه نظام يستطيع البقاء تحت الضغط، لكنه غير قادر على تغيير مساراته، ويبدو أنه عاجز أيضًا عن صياغة عقد اجتماعي جديد يعيد النظر في أولويات خطابه السياسي، أو عن تقديم معنى سياسي لبقاء نظام حكم من هذا النوع لمواطنيه. ما نشهده اليوم هو سلطة قائمة بلا أفق، وبنية حكم تستمر برد الفعل لا بصناعته، وهذا ما يقلّل من فرص إدامتها ككابح إقليمي أخير.

حين يسقط الغطاء الأيديولوجي في قلب غرب آسيا

كلما اهتزّ النظام السياسي الاسلامي في إيران تحت ضغط الشارع، يُستدعى شبح يوغسلافيا فورًا: دولة متعددة القوميات، نظام أيديولوجي ينهار، ثم تفكك دموي. غير أن هذا التشبيه يُستخدم غالبًا كأداة تخويف للداخل، لا كأداة تحليل. والسؤال الحقيقي هنا ليس: هل ستتكرر يوغسلافيا؟ بل: هل إيران مهيأة لأسوأ من ذلك؟ يوغسلافيا كانت دولة اتحادية هشّة، أُمسكت بالقوة الأيديولوجية للشيوعية. وحين سقط الغطاء، تفجرت القوميات بوصفها وحدات سياسية مسلحة جاهزة للصراع. لم يكن التفكك هناك مفاجئًا، بل كان نتيجة منطقية لبنية دولة مؤجلة الانفجار.

فإيران تختلف عن يوغسلافيا، لكنها ليست دولة محصّنة أيضًا. نعم، إنها دولة مركزية عريقة، تغيّر نظامها السياسي الأوتوقراطي بعد عام 1979 إلى أيديولوجيا دينية تحكم الدولة، فوظّفت الدين كأطروحة سياسية للدولة. لكنها لم تُنتج عقدًا وطنيًا جامعًا، بل جعلت التنوع والتعدد بين الهويات الإثنية والقومية يمور تحت الأرض. وحين يتغير النظام لن يولد الاستقرار بالضرورة، بل تنفجر المطالب القومية والإثنية المؤجَّلة دفعة واحدة: من يحكم؟ وبأي شرعية؟ وما موقع الدين والقوى الدينية في الدولة؟ هذه المطالب، إن لم تُحسم سياسيًا، فبالقوة، وقد تمهد للانفتاح على التجارب الانفصالية، كتجربة قاضي محمد في أربعينيات القرن المنصرم، أو إعادة الحلم الانفصالي لدى عرب إيران.

الخطر الأكبر لا يتمثل في إعلان انفصال فوري من هذا المكوّن أو ذاك، بل في انهيار تعريف الدولة نفسها. وهنا تصبح المقارنة مع يوغسلافيا غير كافية، لأن إيران لا تسقط في فراغ، بل تصبح عقدة إقليمية في قلب أكثر مناطق العالم قابلية للاستثمار في الفوضى. فإيران ليست دولة محلية، بل أحد أهم الأضلاع التي تشكّل المربع الشرق أوسطي: إيران، تركيا، الكيان الصهيوني، العرب. فتحطّم نظامها يعني اهتزاز دول مثل العراق وسوريا ولبنان واليمن دفعة واحدة. أي فراغ في المركز الإيراني لن يُترك ليُدار داخليًا، بل سيتحوّل فورًا إلى ساحة صراع إقليمي ودولي.

ثم إن وجود الكيان الصهيوني في المعادلة الشرق أوسطية يجعل أي مرحلة انتقالية هشّة في إيران لحظة خطرة. لن يكون هناك ترف في الوقت لإعادة بناء الدولة بهدوء. لحظات السيولة تُستهدف، لا تُحمى، وأي خلل في البنية العسكرية أو العقيدة الدفاعية قد يفتح الباب أمام ضربات استباقية تُسرّع التفكك بدلًا من منعه. لهذا، فإن السيناريو الأخطر لإيران ليس التفكك السريع، بل التحول إلى دولة مُستنزفة: لا هي موحّدة وقادرة على المبادرة، ولا هي منقسمة على نفسها؛ دولة ضعيفة في المركز، مضطربة في الأطراف، مفتوحة على تدخلات لا تنتهي. فيتولد سؤالان هنا:

- هل ستنقسم إيران كما انقسمت يوغسلافيا؟
- هل يمتلك الإيرانيون ونخبهم مشروعًا بديلًا عن النظام الاسلامي؟ أم أن تغيير النظام سيكشف فراغًا سياسيًا أعمق بسبب غياب المشروع؟

ليست الخطورة في لحظة تغيير أي نظام سياسي مركزي، بل فيما يعقب تغييره؛ فالخطورة تكمن حين لا تجد المكوّنات نموذجًا تعود إليه ليحميها.

حين ينهار الكابح الإقليمي الأخير

لا يمكن عدّ تغيير النظام في إيران حدثًا محليًا، ولا حتى إيرانيًا خالصًا. إنه، في حال وقوعه، سيكون لحظة زلزالية تعيد تعريف الشرق الأوسط، أو تحديدًا غرب آسيا، بأكمله. فإيران لم تكن مجرد دولة يحكمها نظام أيديولوجي وجد جاذبية مغرية لدى بعض التجمعات في داخلها ومحيطها، بل كانت كابحًا إقليميًا، ولاعبًا ثقيل الوزن، وشبكة نفوذ تجاوزت حدودها الجغرافية. ومن ثم، فإن انهيارها لا يفتح سؤالًا عن مصير طهران فحسب، بل يطرح إشكالية أخطر تتعلق بمصير المنطقة برمتها: ماذا سيحدث للمنطقة إذا استُفرِد الكيان الصهيوني من دون توازن قوة؟ فعلى مدى عقود، تشكّل الصراع في الشرق الأوسط ضمن معادلة محاور واضحة: محور تقوده الولايات المتحدة والكيان الصهيوني، في مقابل محور تقوده إيران. ومهما اختلفنا أو اتفقنا مع طبيعته وأدواته، فإن تغيير النظام السياسي الإسلامي في إيران لا يعني انتصار أحد المحورين بقدر ما يعني انهيار هذه المعادلة نفسها، والانتقال من صراع منظّم نسبيًا إلى صراع فراغات مفتوحة. في هذا السياق، لا يملأ الكيان الصهيوني الفراغ بوصفه "بديلًا إقليميًا"، بل بوصفه القوة الأكثر تفوقًا عسكريًا واستخباريًا، فتغدو الدولة القادرة على فرض الوقائع، لا على إدارة الاستقرار.

فالسيناريو الأكثر ترجيحًا، فيما لو مضت الأحداث نحو الإطاحة بنظام الحكم، لا يؤدي إلى تغيير النظام الإيراني فحسب، بل إلى سلطة ضعيفة منشغلة بترميم شأن الداخل، عاجزة عن لعب أي دور إقليمي. وهنا يستفيد الكيان الصهيوني من اللحظة عبر تثبيت تفوقه، لا عبر حرب شاملة، إنما من خلال إدارة منخفضة الكلفة للصراع، ما ينعكس على توسّع التطبيع العربي لا بوصفه خيارًا سياسيًا، بل ملاذًا في ظل غياب البدائل. وقد ينتج عن ذلك استقرار نسبي، لكنه استقرار قاسٍ غير عادل، قائم على الردع لا على التسوية، وعلى اختلال القوة لا على توازنها.

دول بلا مركز، ومجتمعات بلا مشروع

الخطر الحقيقي في هذا المشهد لا يكمن في تفوق الكيان الصهيوني بحد ذاته، بل في انهيار المراكز المقابلة من دون ولادة مراكز جديدة. فغياب إيران كفاعل إقليمي يترك دولًا مثل العراق ولبنان واليمن وسوريا أمام فراغ تنظيمي وسياسي، حيث تتفكك شبكات النفوذ من دون أن تُستبدل بفاعل وطني مقبول. وفي مثل هذه البيئات لا يولد الاستقرار، بل تُعاد الفوضى بأشكال جديدة: صراعات داخلية، عودة الهويات ما دون الوطنية، وتنظيمات راديكالية تبحث عن معنى في الفراغ.

قد يبدو استفراد الكيان الصهيوني بالقوة لحظة انتصار استراتيجي، لكنه في الواقع لحظة اختلال بنيوي. فالشرق الأوسط لا يحتمل قوة أحادية طويلة الأمد. لذلك، في ظل وجود ردع غير متوازن، لا ينتهي الصراع، بل يُؤجَّل ويُراكَم. فالكيان الصهيوني قادر على الضرب، وعلى منع الخصوم من النهوض، لكنه غير قادر على بناء نظام إقليمي مستقر. فهو ليس دولة مركز، ولا مشروعًا جامعًا، بل قوة أمنية غاشمة متقدمة في محيط مأزوم.

إذن، تغيير النظام في إيران، إن حدث، لن يفتح بابًا للسلام في الشرق الأوسط، بل يُدخل المنطقة في حالة من عدم اليقين، أو في الفراغ أو اللاشكل الذي ذكرناه في المقدمة. وقد تتورط الدول الكبرى في مثل هذه الأحداث، أو تتحاصص من جديد، بمعنى أنه قد تتراجع الحروب الكبرى في مقابل تكاثر الأزمات الصغرى. عندئذ سنشهد صراع الفراغات الذي سيعصف ببعض دول المنطقة. وقد تختفي المحاور، لكن الصراعات لن تختفي معها. فالمعضلة الحقيقية ليست في غياب إيران، بل في غياب مشروع إقليمي بديل. ففي الشرق الأوسط، حين يسقط كابح القوة الأخير ولا يولد توازن جديد، لا ينتصر أحد، بل تُستنزف المنطقة بأكملها.

www.alrafidaincenter.com
009647826222246
alrafidaincent

alrafidaincenter.com
alrafidaincent
ص . ب . 252

info@alrafidaincenter.com
مركز الرافدين للحوار RCD
العراق - النجف الاشرف - حي الحوراء - امتداد شارع الاسكان
العراق - بغـداد - الجادريـة - قرب تقاطـع ساحة الحريـة